في ظل ثورات الربيع العربي:
العلاقات التركية - الإسرائيلية من الاستراتيجية إلى التنافسية

د. سامح عباس
خبير الشئون الإسرائيلية

ملخص: شهدت السنوات الأخيرة تطورات متعاقبة في العلاقات الاستراتيجية بين تركيا وإسرائيل، والتي مرت بمنعطفات خطيرة كانت كفيلة بأن تؤدي إلى قطع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين؛ بعد عقود طويلة من التوافق والتعاون المثمر بين أنقرة وتل أبيب والقائم على المصالح المتبادلة انعكس من خلال علاقات قوية ومتميزة في مختلف المجالات الأمنية والعسكرية والاقتصادية والسياحية. فلم يكن فقط حادث الاعتداء الإسرائيلي على سفينة المساعدات التركية «مرمرة» المتجهة إلى قطاع غزة في 31 مايو 2010 السبب الوحيد في تدهور تلك العلاقات التي يرجع تاريخها إلى مارس 1949، بل كانت هناك عوامل أخرى، بعضها مرتبط بالوضع الداخلي في تركيا متمثلة في صعود حزب العدالة والتنمية ذو الخلفية الإسلامية لسدة الحكم، والبعض الآخر مرتبط بالوضع الاقليمي في منطقة الشرق الأوسط، لا سيما بعد اندلاع ثورات الربيع العربي، التي كان لها بالغ الأثر في بلورة الخريطة الجديدة للعلاقات بين البلدين؛ فيما ترتبط عوامل أخرى بوضع دولي متعدد الأطراف، تلعب فيه الولايات المتحدة الدور الرئيسي.

وبهدف تحديد ملامح تلك الخريطة سنقسم تلك الدراسة، التي نعتمد فيها المنهج الوصفي – التحليلي، إلى ثلاثة محاور رئيسية تشمل مجمل العلاقات بين البلدين منذ بدايتها وحتى اليوم، ومن خلال تحليل تلك المحاور مجتمعة يمكننا رسم صورة متكاملة الأركان لمستقبل العلاقات التركية – الإسرائيلية في ظل المتغيرات والمستجدات الإقليمية والدولية المتعاقبة الحالية.

المحور الأول: العلاقات التركية –الإسرائيلية بعد الحرب الباردة

بعد انتهاء الحرب الباردة شهد المحيط الاستراتيجي لإسرائيل تحسنًا كبيرًا بشكل ملحوظ، حيث نجحت في الحفاظ على علاقاتها القوية بالولايات المتحدة الأمريكية. وعلى ضوء تعاظم أهميتها على الساحة السياسية العالمية، في مقابل تراجع قوة الدول العربية على الساحتين الإقليمية والدولية، قامت واشنطن باستئناف مسيرة السلام بين العرب وإسرائيل. في الوقت ذاته كانت تركيا أول دولة إسلامية – والوحيدة لسنوات طويلة – اعترفت بالدولة اليهودية، وأقامت معها علاقات دبلوماسية في عام 1949 وذلك لإرضاء الولايات المتحدة بشكل أساسي. ومع انضمام تركيا لحلف الناتو في عام 1952، كانت إسرائيل بمثابة حليفًا غير رسميًا،

رؤية تركية
2013 - 5
85 - 71

خلال فترة الحرب الباردة لمواجهة انتشار النفوذ السوفيتي في العالم العربي[1].

العلاقات بين تركيا وإسرائيل كانت فى أدنى مستوياتهـا خلال السنوات التي شهدت حروبًا بين العرب وإسرائيل

ورغم أن العلاقات بين تركيا وإسرائيل كانت في أدنى مستوياتها خلال السنوات التي شهدت حروبًا بين العرب وإسرائيل، إلا أن تركيا لم تقم مطلقًا بقطع علاقاتها بإسرائيل، رغم الضغوط العربية التي مورست عليها في هذا الصدد. ومع انتهاء الحرب الباردة برزت إسرائيل وتركيا كدولتين ديمقراطيتين والأكثر نشاطًا اقتصاديًا في المنطقة. كما أسهمت التوجهات الغربية للدولتين، وتطلعاتهما إلى الممارسة الديمقراطية وتطبيق أنظمة السوق الحر وسط محيط عنيف يعيشان فيه، بأن يقفان في صف واحد، من منطلق المصير والمصالح المشتركة التي تجمعهما، مثلما كان عليه الحال أثناء فترة الحرب الباردة[2].

بدأت **الشراكة الاستراتيجية الحقيقية بين أنقرة وتل أبيب، مع بداية حقبة** التسعينيات وبالتزامن مع انتهاء فترة الحرب الباردة، وتحقيق مسيرة السلام العربية – الإسرائيلية لنتائج ملموسة على أرض الواقع، حينها دخلت العلاقات الإسرائيلية – التركية هي الأخرى منحنى جديد اتسم بمزيد من الإيجابية، حيث ارتقى التمثيل الدبلوماسي بين البلدين إلى درجة سفير في يناير 1992 وتنامت العلاقات الاقتصادية بينهما بشكل ملحوظ وقفز حجم التبادل التجاري بين البلدين إلى 2.8 مليار دولار في عام 2007 بعدما كان يُقدر بحوالي 200 مليون دولار فقط في عام 1993. ومنذ منتصف التسعينيات أصبحت تركيا المقصد السياحي الأول بالنسبة للإسرائيليين. علاوة على ذلك شهدت تلك الفترة توقيع سلسلة من الاتفاقيات العسكرية التي وسعت من حجم التعاون الاستخباراتي المشترك الذي كان قائمًا بالفعل من قبل، لكن بمستوى محدود، كما تم إقامة مناورات عسكرية مشتركة للجيشين التركي والإسرائيلي[3].

وكما سبق أن أشرنا، هناك أسباب وعوامل كثيرة أسهمت في تطور العلاقات بين أنقرة وتل أبيب خلال العقد الأخير من القرن الماضي، من أبرزها ظهور ظروف دولية جديدة عقب تفكك الاتحاد السوفيتي، الأمر الذي أدى إلى قيام تركيا بانتهاج سياسة مختلفة تجاه منطقة الشرق الأوسط. فتركيا لم تستفد سوى بالقليل من ثمار السلام عقب انتهاء الحرب الباردة،لأنها وجدت نفسها ما تزال موضوعة وسط محيط عدائي، حيث كانت تعاني من عدم الاستقرار بالإضافة إلى التهديدات الخارجية من قبل جيرانها، لأنها كانت تتبنى سياسة خارجية مستقلة وعدوانية بعض الشيء خلال فترة الحرب الباردة[4].

إلى جانب ذلك كانت تركيا – نتيجة انضمامها لحلف الناتو – تقوم بتوجيه تركيزها في الأساس لصد أي هجوم سوفيتي محتمل،

عام الربيع العربي

الأمر الذي حول تركيزها بعض الشيء عن الاستعداد أمنيًا للتهديدات الشرق أوسطية، لذلك نجد أن التقارب بين تركيا وإسرائيل نبع من قيام أنقرة بإعادة رسم سياساتها الخارجية وتعاظم اهتمامها وتركيزها على منطقة الشرق الأوسط التي لم تكن ترغب في الماضي بالتدخل بها بشكل كبير.

وعن الأسباب الإقليمية والدولية التي أدت إلى تعزيز التعاون المشترك بين أنقرة وتل أبيب فيمكن تلخيصها في أن الرؤية الاستراتيجية لكل منهما تجاه المحيط الإقليمي في عصر ما بعد الحرب الباردة، كانت متشابهة إلى حد كبير، الأمر الذي أعطى دفعة قوية لدعم العلاقات الثنائية بينهما. فكلتا الدولتين كانت لهما مخاوف متشابهة في المنطقة تتعلق بقضايا استراتيجية مهمة مثل سوريا، وانتشار أسلحة الدمار الشامل، وخطر الإسلام الأصولي، ومستقبل منطقة آسيا الوسطى. هذه المخاوف المشتركة زادت حدتها في التسعينيات مع انتهاء الحرب الباردة وتعاظم نشاط الدول المعادية لهما؛ العراق، سوريا وإيران.

أما على الصعيد الدولي، فنجد أن كلتا الدولتين فضلتا انتهاج نزعة موالية للولايات المتحدة الأمريكية في سياستهما الخارجية؛ في الوقت الذي اتسمت فيه علاقاتهما مع أوروبا بأنها كانت علاقات شائكة بعض الشيء، فضلًا عن مخاوفهما المشتركة من تطلعات روسيا نحو المنطقة. تلك الخطوط الاستراتيجية المتماسة بين أنقرة وتل أبيب،

كانت واضحة أيضا أمام أطراف أخرى في المنطقة، حيث نظر الكثيرون بالمنطقة إلى العلاقات الإسرائيلية – التركية بمنظور استراتيجي.

وعن الفوائد التي حققتها كل من إسرائيل وتركيا من وراء علاقاتهما الثنائية، يمكن رصدها من خلال تحديد المكتسبات لكل دولة على حدة؛ فنجد تركيا قد استغلت شراكتها الاستراتيجية مع إسرائيل في ردع عناصر وأطراف إقليمية، لعبت ضدها في منطقة الشرق الأوسط؛ ففي عام 1998 نجحت تركيا في إجبار سوريا على طرد زعيم منظمة حزب العمال الكردستاني الـ(PKK) "عبدالله أوجلان" من دمشق. وفي العام نفسه نجحت تركيا – بمساعدة الولايات المتحدة الأمريكية – في الحيلولة دون نشر صواريخ أرض – جو روسية الصنع من طراز - S 300 في قبرص، وهو الأمر الذي كان من شأنه أن يشكل تهديدًا على المجال الجوي التركي. وفي عام 2001 عملت تركيا – على ما يبدو بدعم غير مُعلن من قبل إسرائيل والولايات المتحدة – ضد إيران،عندما مثلت الأخيرة تهديدًا على مصادر النفط في أزربيجان[5]. كما حالت تركيا، مرات عديدة، دون تمكين إيران من تزويد حزب الله بالأسلحة عبر المجال الجوي التركي. في المقابل ترى إسرائيل أن قيام تركيا بفتح ذراعيها لها يعني تعزيز أواصر صداقة متميزة مع دولة إسلامية لها أهميتها بالمنطقة في ظل محيط عربي وإسلامي معادي لها.

على ضوء ما سبق يمكننا القول أن العلاقات الإسرائيلية – التركية أضحت منذ حقبة التسعينيات أمرًا واقعًا ومؤثرًا في منطقة الشرق الأوسط بعد فترة الحرب الباردة، وعلى عكس الوضع الذي كان سائدًا في الماضي، أصبحت الدولتين القويتين في الشرق الوسط لديهما أجندة عمل استراتيجي متشابهة، ويربطهما تعاون مشترك وثيق[6].

المحور الثاني: العلاقات التركية – الإسرائيلية في ظل حكم العدالة والتنمية

في واقع الأمر بدأت العلاقات بين تركيا وإسرائيل في التراجع قبل الهجوم على السفينة مرمرة بوقت ليس بقصير، وذلك مع انتخاب، رجب طيب أردوجان عام 2003 رئيسًا للحكومة التركية، الأمر الذي دفع أنقرة نحو التوجه لعلاقات جديدة مع اثنين من ألد أعداء إسرائيل هما: إيران وسوريا.

لقد شكل نظام العمل الموسع والمشترك في المجال الاستراتيجي خلال التسعينيات أساسًا للتعاون الاستراتيجي المشترك بين إسرائيل وتركيا، غير أن هذا التعاون بات مرهونًا بالتغيرات التي طرأت على الساحتين الدولية والإقليمية، التي من شأنها أن تزيد من الفروق واتساع الفجوات بين الدولتين.

كما أن التطورات السياسية الداخلية من شأنها كذلك الإضرار بالعلاقات الثنائية. وبوجه عام فإن إحتياج تركيا لإسرائيل، يمكن اعتباره أقل بكثير من إحتياج إسرائيل لتركيا، وهذا يعني أن أنقرة قد تتبنى نهجًا أكثر فتورًا تجاه تل أبيب، وذلك إذا دعت الظروف الدولية والإقليمية إلى ذلك.

رغم أن السياسة التركية الجديدة، في عهد حزب العدالة والتنمية، تعمل على كسب المزيد من الأصدقاء، لكنها لم ترغب في الوقت ذاته أن يكون لها أعداء جدد أو أن تبني علاقاتها الجديدة على أنقاض بعض الأصدقاء الآخرين وبخاصة إسرائيل، لأن ثمن ذلك قد يكون باهظًا على عدة مستويات ومجالات. وبالرغم من ردود الفعل التركية المتعددة إزاء الممارسات والمواقف الإسرائيلية المختلفة ومواقف الرأي العام المتشنجة في كلا البلدين، خاصة بعد أزمة السفينة "مرمرة"، ما زالت الحكومتان تحافظان على علاقتهما الاقتصادية والعسكرية إلى حد ما في جميع المجالات، إذ لم تقم تركيا مثلًا بإلغاء أو تجميد عقود التسليح أو الدفاع أو التجارة مع إسرائيل بشكل نهائي، ومما يؤكد هذا الاتجاه ارتفاع التبادل التجاري بين البلدين في نهاية عام 2011 طبقًا لما ذكره المكتب المركزي للإحصاء في إسرائيل.

ونشير هنا إلى أنه بعد انتهاء الحرب الإسرائيلية على غزة أكد الأتراك أنهم لن يقطعوا العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل، وفي هذا الصدد صرح، أردوجان، في معرض رده على انتقادات عدم قطع العلاقات مع إسرائيل بقوله:" نحن لا ندير دكان نحن ندير الجمهورية التركية". وهو ما يعكس الشعور الكبير بالمسئولية لدى الدولة التركية وقيادتها، وإيمانها بضرورة الحفاظ على المصالح الحيوية الوطنية لتركيا، وعدم الإنجرار خلف مغامرات سياسية إقليمية (7).

حقيقة، كان من أبرز المشاكل المركزية في العلاقات التركية الإسرائيلية خلال حكم حزب العدالة والتنمية، هي محدودية المصالح المشتركة الهامة بين الدولتين، ففي الماضي كان العداء لسوريا بمثابة عنصر اهتمام مشترك بينهما، لكن اليوم نجحت سوريا وتركيا – قبل اندلاع الثورة الشعبية في سوريا ضد نظام الرئيس بشار الأسد – في

تجاوز معظم الخلافات السائدة بينهما، وهو ما أثار مخاوف إسرائيل من حدوث تقارب بين الدولتين. وهكذا الحال مع إيران، ففي الماضي كانت تركيا تخشى النظام الأصولي في طهران، واليوم هنالك تطور في علاقات الدولتين، ومن مؤشرات ذلك أن تركيا لا ترى بالمشروع النووي الإيراني خطرًا عليها، على عكس إسرائيل التي تعتبره تهديد وجودي(8).

على أية حال فمن المؤكد أن صعود حزب العدالة والتنمية في تركيا عام 2002 قد خلق قلقًا في إسرائيل بسبب الأصول الإسلامية له، وبسبب تصريحات عبد الله جول المعادية لإسرائيل عندما كان عضوا بحزب الرفاه، وخلال فترة الولاية الأولى لحزب التنمية تراجعت العلاقات التركية الإسرائيلية عندما صرح أردوجان بأن إسرائيل دولة إرهاب. كما اهتزت العلاقات بين البلدين في أعقاب حرب لبنان صيف 2006. وتفاقمت حدة بعد الحرب على غزة. علاوة على الانتقادات المستمرة التي كانت توجهها تركيا لإسرائيل بسبب تصعيد الإجراءات الإسرائيلية ضد الفلسطينيين.

لقد كان العدوان الإسرائيلي الغاشم على قطاع غزة أواخر2008 منعطفًا خطيرًا في العلاقات بين أنقرة وتل أبيب، بعد أن شعرت الأولى بالمسئولية الإنسانية حيال الفلسطينيين في قطاع غزة؛ ومن ملامح ذلك هو أننا شاهدنا أثناء تلك الحرب وبعدها انتقادات حادة من جانب، أردوجان، تجاه إسرائيل، واعتبر استمرار العمليات الحربية الإسرائيلية بغزة جريمة ضد الإنسانية وبأنها لا تحترم الدور التركي الذي تدخل لوقف تلك العمليات. تجسد هذا الموقف التركي الغاضب بعد صدور قرار مجلس الأمن 1860 الذي طالب بوقف العمليات فورًا، عندما صرح رئيس الوزراء رجب طيب أردوجان قائلًا: "يجب منع إسرائيل من دخول أروقة الأمم المتحدة حتى تنفذ

القرار". من جانبه حذر، عبد الله جول، من مغبة تأثير العمليات الإسرائيلية على الاستقرار بالمنطقة. ولم يتوقف التوتر العلني بين أنقرة وتل أبيب عند هذا الحد، بل تطور بشكل كبير أثناء مؤتمر دافوس الاقتصادي 2009 عندما غادر، أردوجان، أحد اللقاءات غاضبًا من تصريحات الرئيس الإسرائيلي شيمعون بيرس بحيث لم يعطى الوقت الكافي للرد عليها.

لم تقتصر التوترات بين تركيا وإسرائيل على المستوى السياسي فحسب، بل انتقلت للمستوى الشعبي التركي الذي عارض الحرب الإسرائيلية على غزة، حيث خرجت

مظاهرات عارمة بتركيا تطالب بوقف التبادل التجاري والتعاون الأمني مع إسرائيل. فيما أقرت وزارة التربية والتعليم التركية الوقوف دقيقة حداد على أرواح الأطفال الذين قتلوا في غزة. كما بث التلفزيون التركي الحكومي مسلسل يصور الجندي الإسرائيلي وهو يطلق النار على مواطنين عزل وأطفال. وفي استطلاع للرأي العام بتركيا أيد ٪63 سياسة حكومة العدالة والتنمية اتجاه إسرائيل.(9)

ونتيجة للأجواء المشحونة بين تركيا وإسرائيل تم منع إسرائيل من الاشتراك بالمناورات العسكرية التي أجراها حلف الناتو عام 2009، حيث صرح أردوجان أنه لا يمكن أن تقتل إسرائيل بغزة وتجري في الوقت نفسه تدريبات عسكرية على الأراضي التركية. وفي نفس السياق صرح وزير الخارجية التركي أنه لا يمكن إبراز وجود علاقات عسكرية مع إسرائيل بهذه الفترة الصعبة التي لا يوجد بها سلام.

أما فيما يتعلق برد فعل الرأي العام الإسرائيلي حيال توتر العلاقات مع تركيا، فقد اقتصر على الدعوة عبر صفحات الإنترنت لعدم السفر إلى تركيا، حيث انخفضت السياحة الإسرائيلية إلى تركيا عام 2009 بنسبة ٪44 مقارنة بالعام 2008. وتجدر الإشارة هنا إلى أن السياحة تعتبر مكون من مكونات العلاقات التركية الإسرائيلية رغم أن نسبة السائحين الإسرائيليين قليلة مقارنة مع مجموع السائحين الذين يدخلون تركيا. علاوة على ذلك ظهرت في الأونة الأخيرة بوسائل الإعلام الإلكترونية الإسرائيلية مواقف معادية لتركيا.(10)

من جانبه قاد وزير الخارجية الإسرائيلي السابق، أفيجدور ليبرمان، تيار متشدد تجاه تركيا، عبَر عنه بطريقة تعامل نائبه، داني أيلون، مع السفير التركي عندما استدعاه لمحادثة تخللها توبيخ إسرائيلي لتركيا لبثها مسلسل تلفزيوني يصور رجال الموساد الإسرائيلي كخاطفي أطفال أتراك. وجاء هذا التوبيخ متجاوزًا للأعراف والتقاليد الدبلوماسية والسياسية. تسببت هذه الحادثة في تداعيات كبيرة هددت تركيا على إثرها بسحب السفير التركي من إسرائيل إذا لم تعتذر. في الوقت ذاته وجهت انتقادات داخل إسرائيل على سلوك أيلون، حتى أن، ليبرمان، أقر بأن طريقة التعامل مع السفير التركي خاطئة. وأظهرت الحادثة الإمكانيات المحدودة لإسرائيل مقابل تركيا، وأن ميزان القوى الحقيقي بين الدولتين يميل لصالح تركيا التي طلبت اعتذارا رسميا - حصلت عليه إضافة إلى الاعتذار غير المباشر الذي قدمه أيلون في البداية. وهنا نشير إلى أن قبول

تركيا الاعتذار الإسرائيلي وزيارة وزير الدفاع الإسرائيلي السابق، إيهود باراك، لتركيا بعد أيام من الحادث يؤكد بوضوح على أن تركيا غير معنية بقطع العلاقات مع إسرائيل. وينسجم هذا الموقف مع موقف تركيا القائم على المحافظة على قنوات الحوار في الشرق الأوسط. وفي هذا الصدد صرح، داود أوغلو، وزير خارجية تركيا، أن نقد سياسات حكومة إسرائيل لا يعني قطع العلاقات معها.(11)

عمومًا فمن المؤكد أن المستجدات الدولية التي شهدها القرن الحادي والعشرين كان لها تأثيرًا على منظومة العلاقات بين البلدين، فالأحداث التي وقعت منذ الحادي عشر من سبتمبر 2001 أدت إلى تعزيز التعاون الاستراتيجي المشترك بين تركيا وإسرائيل، من منطلق أن كلتا الدولتين تواجهان تهديدات إرهابية مشابهة، فتركيا هي الأخرى كانت مستهدفة من قبل الإرهابيين الإسلاميين، لذا عمل رئيس الوزراء التركي أردوجان على زيادة التعاون الاستخباراتي بين الدولتين في مجال مكافحة الإرهاب، بالإضافة إلى ذلك نجد أن كلا البلدين يؤيدان بشدة الحملة الدولية التي تشنها الولايات المتحدة على الإرهاب، والتي تستهدف المتشددين الإسلاميين لأن القيادات التركية والإسرائيلية تخشى من تأثير المتطرفين دينيًا على الدول الموالية للغرب بالمنطقة، مثل مصر والأردن، خشية من أن يؤثر ذلك على الاستقرار الإقليمي.

وفي إطار تلك المستجدات الدولية كادت الخطة الأمريكية لغزو العراق أن تؤثر على العلاقات الثنائية تركيا وإسرائيل؛ فتل أبيب كانت تشعر بالقلق حيال رفض تركيا للطلب الأمريكي بفتح جبهة شمالية للعراق عبر الأراضي التركية، الأمر الذي خلق توترًا بين أنقرة وواشنطن واستمرت حالة التوتر هذه عقب المخاوف من أن تدعم السياسة الأمريكية في العراق التطلعات الكردية لإقامة دولة مستقلة في شمال العراق وتؤدي إلى تجدد العمليات الإرهابية من قبل حزب العمال الكردستاني.(12)

الأحداث التي وقعت منذ الحادي عشر من سبتمبر 2001 أدت إلى تعزيز التعاون الاستراتيجي المشترك بين تركيا وإسرائيل، من منطلق أن كلتا الدولتين تواجهان تهديدات إرهابية مشابهة

ورغم أجواء التوتر بين البلدين، إلا أن الجهود التركية للتنسيق بين الفلسطينيين والإسرائيليين بعد الحرب على غزة لم تتوقف، فقد ساهمت تركيا بإقناع قادة حركة حماس على وقف إطلاق النار مع إسرائيل، حيث شارك عبدالله جول بالاجتماع الذي عقد في شرم الشيخ بعد انتهاء الأزمة، إلى جانب الأوروبيين والأمين العام للأمم المتحدة.

ومما يؤكد على أهمية مكانة القضية الفلسطينية في السياسة الخارجية التركية وتأثيرها على

العلاقات بين أنقرة وتل أبيب، ترى تركيا بالموقف الإسرائيلي وموقف بعض الدول الأوروبية الرافض للتفاوض مع حماس خطأ فادحًا وتسبب في تدهور الأوضاع في غزة. كما تعمل تركيا على تحقيق المصالحة بين فتح وحماس لتشكيل حكومة وحدة فلسطينية. وفي هذا الصدد تحدث وزير الخارجية التركي بأن تركيا لا تنظر للمنطقة من منظار متطرفين ومعتدلين بل تنظر لهم كجيران. إضافة إلى محاولات تركيا الوساطة بين إسرائيل وحماس وبين التيارات الفلسطينية؛ كما استضافت تركيا أيضًا جزء من اللقاءات التي تمت بين إسرائيل وباكستان التي لا تقيم علاقات دبلوماسية مع إسرائيل، وعُقدت اللقاءات على مستوى وزراء خارجية البلدين في إسطنبول.

تلك الصورة المجملة لشكل العلاقات بين تركيا وإسرائيل وما شهدته من شد وجذب منذ صعود حزب العدالة والتنمية لسدة الحكم في تركيا، نجحت تلك العلاقات في الصمود أمام العواصف السياسية المتكررة، إلى أن جاء حادث الاعتداء على سفينة المساعدات التركية "مرمرة" عام 2010 الذي أسفر عن مقتل تسعة من النشطاء الحقوقيين الأتراك على يد قوات الجيش الإسرائيلي، فكان بمثابة الشعرة التي قصمت ظهر البعير، ودخلت العلاقات بين البلدين إلى نفق مظلم، وظل هذا الحادث حائلًا منيعًا أمام عودة تلك العلاقات، وبخاصة على ضوء إصرار رئيس الوزراء التركي على ضرورة تقديم إسرائيل اعتذارًا رسميًا لتركيا على اعتدائها الوحشي على نشطاء السفينة "مرمرة". غير أن فشل المساعي الإسرائيلية لإيجاد بديل لتركيا في منطقة حوض البحر المتوسط سواء من خلال توجهها إلى اليونان أو لعدد من دول البلقان أجبر القادة الإسرائيليين على الخضوع والعودة لاسترضاء تركيا مرة أخرى لتصفية الأجواء معها لاسيما بعد وصول العلاقات بين البلدين لأدنى مستوى لها.

في حينه اعترفت دراسة عبرية صادرة عن معهد أبحاث الأمن القومي الإسرائيلي بانهيار تام للعلاقات الاستراتيجية بين تركيا وإسرائيل ووصولها إلى أدنى مستوياتها عقب حادث الاعتداء على السفينة مرمرة، مشددة على أن هذا الحادث وضع النهاية لمسلسل الحلف الاستراتيجي بين أنقرة وتل أبيب، وأنه كان بمثابة نهاية لذوبان جبل الجليد بين البلدين. وأكد معد الدراسة الخبير الاستراتيجي الإسرائيلي، عوديد عيران، على أن الانهيار السريع للعلاقات الثنائية بين البلدين يشير إلى وجود تغيير عميق في توجهات السياسة التركية، وقد أسهم في هذا التغيير عدة عوامل، من بينها الجذور الأيديولوجية ذات الطابع الإسلامي لحزب العدالة والتنمية التركي، والإحباط التركي من إمكانية الانضمام للاتحاد الاوربي، وعدم حدوث تقدم في المفاوضات في هذا الشأن، هذه العوامل كانت كفيلة بأن تغير تركيا وجهتها، وتقوم في المقابل بتعزيز علاقاتها مع جاراتها، على رأسها سوريا وإيران.(13)

في مجمل تقييمنا للعلاقات التركية الإسرائيلية خلال العقد الأول من القرن

الحادي والعشرين، سيتضح لنا أن هناك أطراف وعوامل إقليمية أسهمت بشكل فعال في استمرار العلاقات بين البلدين وجعلتهما يتجاوزان كافة الخلافات بينهما، ويمكننا تحديد تلك العوامل في النقاط التالية:

أولًا : العراق والقضية الكردية

يبدو أن المصالح الرئيسية لكل من تركيا وإسرائيل فيما يتعلق بالعراق كانت متشابهة إلى حد كبير خلال السنوات الأولى من الألفية الجديدة، فكلا الدولتين ترغبان في أن تظل الولايات المتحدة هناك، وتأملان في أن تنجح في إحداث تغيير سياسي يسير إلى الأفضل، ورغم أنهما لا يتوقعان حدوث انفراجة ديمقراطية في العراق في المستقبل القريب، إلا أنهما يفضلان بناء عراق مستقر وموحد لا يشكل تهديدًا على جيرانه. في الوقت ذاته نجد أن احتمالية تقسيم العراق إلى ثلاثة دويلات – تتضمن دولة كردية – أثر بالسلب على العلاقات التركية – الإسرائيلية، ففي ربيع 2004 وجه المسئولين الأتراك تحذيرًا شديد اللهجة لإسرائيل، وقامت أنقرة باستدعاء سفيرها في إسرائيل، وذلك نتيجة ورود تقارير تفيد بأن الإسرائيليين يتدخلون بشكل كبير في الشئون العراقية – الكردية. بينما لم تنظر أنقرة بجدية إلى التصريحات الرسمية الإسرائيلية التي تتحدث عن دولة العراق الموحدة، وذلك بسبب مساندة إسرائيل في الماضي للحركة القومية الكردية في العراق والتي جاءت ضمن استراتيجية إسرائيلية لتكوين تحالفات مع الأقليات غير العربية في المنطقة، بالإضافة إلى المقالات التي انتشرت في الصحافة الإسرائيلية التي تؤيد إقامة كيان كردي مستقل، حيث أعتبر ذلك بمثابة دليل على أن إسرائيل تتطلع إلى تقسيم دولة العراق إلى ثلاثة دويلات صغيرة – من بينها دويلة كردية – وتحقيق التطلعات الإسرائيلية الرامية إلى إضعاف العالم العربي. كما أعربت تركيا عن مخاوفها وغضبها جراء الأنشطة الاقتصادية الإسرائيلية في شمال العراق ومن المساعدات العسكرية التي تقدمها عناصر إسرائيلية للأكراد هناك.

إضافة لذلك فقد أسهم اختفاء، الرئيس العراقي السابق، صدام حسين، من على الساحة السياسية في القضاء على مصدر تهديد آخر كان يهدد كل من تركيا وإسرائيل،الأمر الذي كان من شأنه أن يقود أنقرة – في حال بقائه – إلى التفكير في تقليل الاعتماد على تل أبيب حتى يتم خلق حالة من التوازن بين التهديدات في الشرق الأوسط.

ثانيًا : البرنامج النووي الإيراني

بالفعل أسهمت التطلعات الإيرانية النووية في تعزيز التقارب التركي – الإسرائيلي، حيث تجمع الدولتين نفس المخاوف من أن تصبح إيران دولة نووية. فمتخذي القرار في إسرائيل يرون أن وجود أسلحة نووية في يد إيران – ذات النظام الإسلامي المتشدد – يشكل تهديدًا فعليًا، بينما يرى الأتراك أن إيران باتت تشكل التهديد الأول عليهم، وهو ما أكده وزير الدفاع

التركي، رشدي جونول، في عام 2003 عندما صرح بأن إيران أصبحت تشكل أخطر تهديد على أمن تركيا لمواصلتها شراء أسلحة دمار شامل، ومساعدتها للإرهاب الدولي. كما صرح السفير التركي في الولايات المتحدة، فاروق لوجولو، أن السلاح النووي الإيراني سيشكل التهديد الأخطر على أمن منطقة الشرق الأوسط. بالإضافة إلى ذلك نجد أن الوثيقة التي ترسم السياسة الأمنية الوطنية لتركيا - التي صيغت في نوفمبر 2005 - تصف إيران بأنها أحد الأسباب الهامة لعدم الاستقرار في المنطقة، بسبب برنامجها النووي.

ثالثًا : مجال الطاقة

في وقع الأمر نجح مجال الطاقة في أن يخلق قاعدة مشتركة للتعاون الاستراتيجي بين تركيا وإسرائيل، فالأخيرة تساند من البداية مشروع مد خط أنابيب من مدينة باكو إلى ميناء جيهان لنقل النفط والغاز من بحر قزوين إلى البحر المتوسط بهدف الحد من اعتماد الغرب على خطوط النفط المارة عبر إيران وروسيا، كما تساند إسرائيل التطلعات التركية الرامية إلى تحويل تركيا إلى مركز عالمي للطاقة، وهو الأمر الذي أسهم بشكل كبير في توثيق التعاون الاستراتيجي بين البلدين في ظل حكم حزب العدالة والتنمية، وجعلهما يتجاوزان العراقيل التي وقفت أمام تطور العلاقات بينهما، وهو ما يؤكد على أن التعاون الاقتصادي ركيزة أساسية في العلاقات الاستراتيجية بين البلدين، وليس فقط التعاون الأمني والعسكرين كما يبدو واضحًا.

وهنا تجدر الإشارة إلى مشروع القرن الاستراتيجي الذي تشكل تركيا محوره الأساسي Med Stream Project بتكلفة تتجاوز حاجز الـ 12 مليار دولار. ويهدف هذا المشروع إلى ربط البحور الأربعة، قزوين والأسود والمتوسط والأحمر، ويساعد على ربط منطقة آسيا الوسطى بالشرق الأوسط ضمن رؤية تركية لدور محوري في مشروع طاقة أكبر يمتد من الصين شرقًا إلى أوروبا غربًا ومن تركيا شمالًا إلى الهند جنوبًا. ويتضمن هذا المشروع من ضمن ما يتضمن أنابيب لنقل النفط والغاز والماء والكهرباء والألياف الضوئية من تركيا إلى إسرائيل[14].

أسهمت التطلعات الإيرانية النووية في تعزيز التقارب التركي - الإسرائيلي، حيث تجمع الدولتين نفس المخاوف من أن تصبح إيران دولة نووية

على أية حال يمكن القول أنه على الرغم من أن رؤية تركيا وإسرائيل للأحداث المختلفة ليست متطابقة في جميع القضايا المطروحة على الساحة، لكنهما يعلمان جيدًا كيف يتجاوزان حالة الاختلاف في الرأي إزاء القضايا الفرعية، ويركزان على القضايا الرئيسية بما يخدم مصالحهما القومية؛ فعلى سبيل المثال نجد أن إسرائيل تتغاضى عن التعاطف السائد في تركيا تجاه الفلسطينيين، وعن التقارب بين حزب العدالة والتنمية وحركة حماس، في المقابل لم تكترث تركيا

بالعراقيل التي تضعها إسرائيل أمام استيراد المياه من تركيا، وعدم إظهارها لحماستها تجاه الدور الذي تحاول تركيا لعبه في عملية السلام بالشرق الأوسط.

والخلاصة هي أنه رغم اختلاف وجهات النظر إزاء بعض القضايا الثانوية، ووجود عناصر مختلفة تحاول التأثير بالسلب على العلاقات الثنائية،إلا أن ذلك لم يؤثر على الأهمية التي توليها كلتا الدولتين للتعاون الاستراتيجي فيما بينهما.

المحور الثالث: مستقبل العلاقات التركية -الإسرائيلية في ظل ثورات الربيع العربي

أسهم انطلاق قطار ثورات الربيع العربي آواخر عام 2010 من تونس في إحداث تغييرات جذرية للخريطة الجيو سياسية في منطقة الشرق الأوسط، وأسفرت تلك الثورات عن صعود قوى إقليمية في مقابل تراجع قوى إقليمية أخرى. ويبدو أن تأثير ثورات الربيع العربي كان له انعكاسات واضحة ومباشرة على العلاقات التركية – الإسرائيلية؛ ففى الوقت الذي تعاظم فيه الدور الاقليمي لتركيا في المنطقة باعتبار أنها النموذج التنموي الإسلامي الذي يمكن لدول الربيع العربي التي سيطرت عليها أنظمة ذات نزعة إسلامية، لاسيما مصر وتونس، السير على نهجه في الفترة المقبلة من أجل تحقيق طفرة تنموية فيها، على غرار الطفرة التي حققها حزب العدالة والتنمية في تركيا، خاصة في ظل وجود روابط أيديولوجية تربط حزب العدالة والتنمية التركي بحركتي جماعة الإخوان المسلمين في مصر وحزب النهضة الإسلامي في تونس. في المقابل نجد انكماشًا للدور الإقليمي لإسرائيل، التي آثرت التزام الهدوء وعدم إثارة المشاكل في المنطقة، خاصة بعد سقوط أقوى الأنظمة العربية الموالية لها، وهو نظام حسني مبارك في مصر.

تأثير ثورات الربيع العربي كان له انعكاسات واضحة ومباشرة على العلاقات التركية - الإسرائيلية

في هذا السياق نشير إلى ما ذكرته صحيفة "نيويورك تايمز" الأمريكية بأن الشرارة التي أطلقتها الثورات الشعبية بالعالم العربي، والأوضاع المتغيرة المترتبة على تلك الثورات قد أسفرت عن تغيير في الحسابات "الجيو سياسية " لكل من تركيا وإسرائيل، منوهة إلى أن التغيير الذي أحدثته الثورة المصرية أدى إلى نوع من الفتور في العلاقات المصرية – الإسرائيلية، وهو الأمر نفسه الذي ينطبق على العلاقات بين تركيا وكل من سوريا وليبيا، والتي باتت تشهد نوعا من الجمود على خلفية مواقف تركيا من الثورة في البلدين، الأمر الذي دفع كل من إسرائيل وتركيا للبحث عن حلفاء جدد، وإدراك أنه لابد من المضي قدُمًا نحو التوصل إلى حل للأزمة الدبلوماسية بينهما. وحسب الصحيفة الأمريكية فقد أدركت تركيا أنها على وشك أن تخسر البديل الذي اختارته على

حساب علاقتها بالغرب، أي محور سوريا وإيران، وهذا ما دفع أردوجان إلى إعادة النظر في علاقته بـإسرائيل.

هذا التأثير المباشر لثورات الربيع العربي - غير المتوقع - ما لبث أن أحدث تقاربًا مجددًا - لكن ربما هذه المرة لا يمكن أن نصفه بأنه استراتيجيًا - بين أنقرة وتل أبيب، بعد وصول قطار الربيع العربي إلى سوريا وإمكانية سقوط نظام بشار الأسد، المعادي لكل من تركيا وإسرائيل. وقد اعتبرت الأخيرة الأوضاع في سوريا فرصة ذهبية لعودة العلاقات بين البلدين، بزعم أن ما يحدث في سوريا حاليا له انعكاس مباشر على البلدين، وهذا ما أكده، زاكي شالوم، الخبير الاستراتيجي والمحاضر بمعهد "بن جوريون" للدراسات الإسرائيلية في دراسته التي نشرها بمجلة "مفترق الشرق الأوسط" - إحدى إصدارات مركز "موشيه ديان" لأبحاث الشرق الأوسط وأفريقيا - والتي حملت عنوان (هل من الممكن ترميم التحالف الاستراتيجي بين إسرائيل وتركيا؟). وزعم الخبير الاستراتيجي الإسرائيلي أنه من الممكن أن يصبح ما يحدث في سوريا الآن بمثابة بداية حقيقية لإيجاد قاعدة مشتركة من التعاون الاستراتيجي المشترك مرة أخرى بين إسرائيل وتركيا، وهو التعاون الذي يمكن على إثره إعادة بناء التحالف الاستراتيجي من جديد بين البلدين، مشيرًا إلى أن هذا التعاون بات ملحًا وضروريًا في تلك المرحلة لمواجهة أية تداعيات سلبية في المنطقة قد يسفر عنها عدم الاستقرار في سوريا مستقبلًا.

وعن أسباب إصرار تل أبيب على عودة العلاقات مع أنقرة والتمسك بتلك الفرصة لاسترضاء تركيا بأي شكل من الأشكال بعد الربيع العربي، يمكن أن نرجعها لرؤية إسرائيل، بأن ترك الساحة مفتوحة أمام تركيا وتعاظم قوتها على حساب ضعف النظام السوري، أمر سيكون له تداعيات إقليمية بعيدة المدى، خاصة وأن سوريا تعتبر بمثابة دولة محورية في منطقة الشرق الأوسط.

وعلى ضوء تنامي الثورات العربية المحيطة بهما في منطقة الشرق الأوسط، والتي قد تمثل خطرًا كبيرًا على كليهما، قال الخبير الإسرائيلي في معرض دراسته: "من الممكن أن تسفر جهود المصالحة بين تركيا وإسرائيل عن شيء مثمر إذا ما كان هناك محاولة للتدخل من قبل الإدارة الأمريكية وهو الأمر الذي من شأنه أن يؤدي إلى حدوث انفراجة في العلاقات بين الطرفين".

ملخص ونتائج:

1- إن تعزيز العلاقات التركية - الإسرائيلية من شأنها زيادة نفوذ الولايات المتحدة في الشرق الأوسط نتيجة علاقاتها الاستراتيجية مع كل من أنقرة وتل أبيب.

2- عند الحديث عن العلاقات التركية - الإسرائيلية لا يمكننا إغفال الجانب الاقتصادي والتجاري والسياحي، ودوره في تعزيز تلك العلاقات، لاسيما

عندما يدور الحديث عن المشروعات العالمية الكبرى المرتبطة بمجال الطاقة. وإضافة إلى ذلك يعتبر التعاون في المجال الأمني والعسكري بمثابة ركيزة أساسية في العلاقات بين البلدين.

3- رغم مخاوف إسرائيل من التقارب التركي مع كل من سوريا وإيران، فإنها ما زالت تراهن على عدم قيام تركيا بمراجعة علاقاتها الوثيقة بإسرائيل على الرغم من التوتر الحاصل في العلاقات بين البلدين، حتى لو وصل الأمر إلى درجة تخفيف مستوى التمثيل الدبلوماسي أو لو حتى تم تجميدها.

4- على ضوء ثورات الربيع العربي التي أسفرت عن صعود التيارات والأحزاب الإسلامية في عدد من الدول العربي لسدة الحكم، ما زالت ترى إسرائيل في تركيا القوة المعتدلة الوحيدة في الشرق الاوسط من حيث التعامل المباشر معها، وأن أية أزمة في علاقة البلدين تكون ضمن الحسابات الدقيقة لإسرائيل.

5- على الرغم من أجواء التوتر التي شابت العلاقة بين البلدين، إلا أنه سيظل هناك حرص من جانب كلا الدولتين من أجل المحافظة على شعرة معاوية بينهما، وأن لا تصل العلاقات بهما إلى القطيعة. ومن ثم يمكن القول أنه على الرغم من تزايد مؤشرات التوتر في العلاقات بين البلدين إلا أنه ينظر إليها باعتبارها مستجدات طارئة لن تؤثر على عمق العلاقات الاستراتيجية القائمة بين الدولتين، والتي تصوغها لغة المصالح المتبادلة، في الوقت نفسه فإنه لن يكون مستبعدًا أن تلوح في الأفق مؤشرات جديدة يمكن أن تساهم في إعادة صياغة المعادلة التي تستند عليها العلاقة بين البلدين.

6- إدراك إسرائيل لأبعاد الدعم التركي للقضية الفلسطينية، وجهود أنقرة لتحقيق المصالحة بين الفصائل الفلسطينية، سيدفعها للتعامل بمزيد من الحذر مع الفلسطينيين، وتحاشي التصعيد معهم بقدر الإمكان، وبخاصة في قطاع غزة، لكي لا يؤثر ذلك على علاقاتها مع تركيا.

الحواشي والمراجع

1 - Efraim Inbar, "Arab - Israeli Coexistence: Causes, Achievements and Limitations ", Israel Affairs, Vol. 6, Nos. 3&4 (Summer 2000).

2- إفرايم عنبار: تركيا و الهند..الشريكان الاستراتيجيان الجديدان لإسرائيل، مجلة دراسات في الأمن القومي، عدد 77، مركز بيجن السادات للدراسات الاستراتيجية، جامعة بار إيلان، يوليو 2008.

3- المصدر السابق.

4- Kemal Kirişci. "The End of the Cold War and Changes in Turkish Foreign Policy Behavior. Diç Politika, Vol. 18. Nos. 3 - 4 (1993)

5- Robert Olson, "Turkey - Iran Relations, 2000 - 2001: The Caspian, Azerbaijan and the Kurds", Middle East Policy, Vol. 9, No. 2 (June 2002)

6- إفرايم عنبار: تركيا والهند.. الشريكان الاستراتيجيان الجديدان لإسرائيل.

7- L. Sariibrahimoglu, "Israeli - Turkish Relations put to the Test", Eurasia Daily (January 23, 2009)

8- O. Bengio, "Turkey and Israel: Friends for Life?" Lecture given at the conference on Turkey's Role in the Changing Global

Environment, Moshe Dayan Center, Tel Aviv.(University May).

9- جيلا ليندنشتراوس: تواصل وحوار.. النموذج الجديد في السياسة الخارجية والأمنية لتركيا وانعكاساتها على إسرائيل، مذكرة104، معهد أبحاث الأمن القومي، جامعة تل أبيب، يونيو 2010.

10- المصدر السابق

11- المصدر السابق

12- إفرايم عنبار: تركيا والهند.. الشريكان الاستراتيجيان الجديدان لإسرائيل.

13- د.سامح عباس: مقال بعنوان تركيا الإسلامية وشبح الحرب المرتقبة مع إسرائيل، موقع مفكرة الإسلام، الرابط الالكتروني.

http://www.islammemo.cc/Tkarer/Tkareer/2010/10/01/107993.html

14- تقرير، أمن الطاقة الإسرائيلي والجيوبوليتيك الإقليمية، مركز الجزيرة للدراسات.

HYPERLINK "http://www.aljazeera.net/NR/exeres/CDC7E527 - 4C66 - 4B8B - 9E04 - 1F3D0AFF3E9B.htm" \t "_blank"